أ.د. فايز نجيب إسكندر (*)

مملكة الفرنجة
بين المباردين والبابوية
زمن بيبين القصير
(٧٥١ - ٧٦٨م)

نجح كلوفيس Clovis (٤٨١ – ٥١١م) فى توحيد بلاد الغال La Gaule فى مملكة واحدة بعد أن كانت أربع، ووحد القبائل الفرنجية فى شعب واحد، وفى سنة ٤٩٦م - وبدوافع سياسة - إعتنق المسيحية على المذهب الكاثوليكى، ويعزى ذلك لتأثيرات زوجته كلوتيلد Clotilde الأميرة البرجندية، فتعمد وثلاثة آلاف من أتباعه فى كاتدرائية ريمز Reims، فأكتسب الشرعية، وحظى بمناصرة وتأييد البابوية ورجال الدين الكاثوليك، كما أصبح المدافع الأول عنهم وعن أملاكهم وثرواتهم.

وهكذا سطر كلوفيس الصفحة الأولى من العلاقات الودية بين الفرنجة والبابوية، تلك السياسة الناجحة التى ستظهر نتائجها الإيجابية على الطرفين فيما بعد(١).

ومما يذكر أن الأسرة الميروفنجية إنتقلت من دور القوة والتوسع الذى امتد بين سنتى ٥١١م وانتهى سنة ٦٣٩م بوفاة داجوبير الأول Dagobert I (٦٢٩– ٦٣٩م)، إلى دور الضعف والإنحلال (٦٤٠ – ٧٥١م)؛ حتى أن تلك الفترة عرفت بعهد الملوك الكسالى، وسيطرة حجاب القصر - أى رؤساء البلاط– ؛ وكان من أبرزهم ببين القصير Pépin Le Bref (٧٥١ – ٧٦٨م) الذى صار الحاكم الفعلى لمملكة الفرنجة، فتجاوزت أطماعه حجابة القصر، والقناعة بلقب «دوق وأمير الفرنجة»، إلى السعى للإطاحة بشيلد ريك الثالث Chideric III (٧٤٢– ٧٥١م) والإحلال مكانه على عرش مملكة الفرنجة. وقد أعد لذلك خلال عامين حسب قول المؤرخ المكمل لحولية فريديجير(٢) . Frédegaire

★ أستاذ تاريخ العصور الوسطى، كلية الآداب، جامعة بنها.

وبثاقب بصره وبصيرته، خطط ببين لاغتصاب السلطة الملكية من آخر الملوك الميروفنجيين الذى لا حول له ولا قوة، وحرص أيضاً على صبغ ذلك الاغتصاب بصبغة شرعية، مدركاً أن تحقيق تلك الغاية لا تتم إلا بموافقة ومباركة البابوية فى روما. فمهد لذلك بأن أرسل سنة ٧٤٦م إلى البابا زكريا Zacharie (٧٤١ – ٧٥٢م) يستفتيه فيما يتعلق بمهام واختصاصات رؤساء الأساقفة. كما أوفد إليه فى عام ٧٥٠م مبعوثَيْن: الأول بورشار Burchard أسقف ورزبرج Wurszburg، والثانى فلراد Fulrad رئيس ديرسان دينيه[٣] Saint Dennis. أوفدهما للمثول أمام البابا زكريا Zacharie (١٠ديسمبر٧٤١ – ٢٢مارس ٧٥٢م) فى روما[٤]، ليستفسرا منه بخصوص ملوك الفرنجة الذين لا يقوون على ممارسة مهامهم وسلطاتهم الملكية، هل يحق لهم حمل لقب ملك. فقد جاء فى رسالة ببين الذى تسلمها البابا من مبعوثَيْه: «من يجب أن يكون ملكاً على الفرنجة. الملك الذى لا يملك من السلطة إلا إسمها، أم الذى يمارس ويملك السلطة الفعلية؟».

على أية حال، توافق رد البابا زكريا مع أطماع ببين، إذ جاء فيه: «أنه من الأفضل أن يلقب بلقب ملك، الشخص الذى بيده السلطة الفعلية، المتحكم فى تسيير شئون المملكة، بدلا من الشخص الذى لا حول له ولا قوة ولا يقوى على ممارسة مهام السلطة الملكية»[٥].

ولقد تأكد ببين من مناصرة البابا زكريا له، وأن رده سيكون إيجابياً، فالمصلحة هى المُسَيرَة للأحداث السياسية. ولما كانت البابوية معرضة آنذاك لاغتصاب أملاكها من قبل اللمبارديين الذين يسعون آنذاك لبسط سيادتهم على إيطاليا بكاملها، لذا كان البابا زكريا وخلفاؤه فى حاجة ماسة إلى مساعدة عسكرية من قبل ببين ومن بعده إبنه شارلمان، وذلك لكبح جماح أعدائهم اللمبارديين، كما رغب فى التخلص من السيادة البيزنطية.

ولقد أتاح رد البابا زكريا الإيجابى الفرصة لببين أن يُقْدِمْ فى نوفمبر سنة ٧٥١م على عزل آخر ملوك الأسرة الميروفنجية - شلدر يك الثالث - وإدخاله أحد الأديرة ليقضى فيه البقية الباقية من حياته، فى حين تبوأ ببين القصير عرش مملكة الفرنجة بعد أن توجه ملكاً المبشر الإنجليزى الأسقف بونيفاس Boniface، ثم مسحه بالزيت المقدس، وجرى رفعه على التروس تعبيراً عن تعيينه ملكاً جديداً على مملكة الفرنجة طبقاً للعادة الجرمانية القديمة[٦]. وبذلك تم تكريس العاهل الفرنجى الجديد وتنصيبه رسمياً فى احتفال كبير أقيم فى سواسون Soissons سنة ٧٥١م[٧]. وهكذا، أسدل ببين الستار على الأسرة الميروفيجية، ليقيم على أنقاضها الأسرة الكارولنجية والتى نسبت إلى إبنه

شارل العظيم .Charlemagne وقد أشار المؤرخ البلجيكى هنرى بيرين Henri Pirenne إلى هذا الحادث بالإنقلاب الكارولنجى(٨) Coup D'état

هكذا شهد منتصف القرن الثامن الميلادى ميلاد الأسرة الكارولنجية، بعد تتويج رئيس بلاط أوسترازيا Austrasie ببين القصير، ملكاً على مملكة الفرنجة. وفى عهده أصبحت تلك المملكة القوة السياسية العظمى فى الغرب الأوربى آنذاك، وازدادت قوة بفضل السياسة الخارجية الناجحة والحكيمة التى استنها الملك الكارولنجى والقائمة على التحالف مع البابوية سيراً على خطى سياسة كلوفيس مؤسس الأسرة الميروفينجية الزائلة؛ كما أن بابوات روما آنذاك حرصوا حرصاً شديداً على توثيق هذا التحالف، حماية لهم من اجتياح اللمبارديين لأراضيهم، ولوضع حد لأطماعهم الهادفة إلى بسط سيادتهم على إيطاليا من أقصاها إلى أقصاها.

والجدير بالذكر أن البابوية كانت قد ورثت أملاك الإدارة البيزنطية فى وسط إيطاليا، واستغلت خير استغلال الظروف والأحداث التى ألّمت بنهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط، وبخاصة غزوات الجرمان التى مزقت الغرب الأوربى إلى ممالك فقضت على الإمبراطورية الرومانية الغربية، إضافة إلى المسيحية التى قضت على الوثنية وعبادة الأمبراطور؛ استغلت البابوية هذه الظروف لإقامة ملك دنيوى لها فى إيطاليا يشمل بصفة عامة المنطقة الواقعة بين البحرين المتوسط والأدرياتى. وكانت قد ازدادت قوة وأخذت مكانتها منذ عهد جريجورى العظيم (Grégoire Le Grand ٥٩٠ – ٦٠٤م) بعد أن منحها الشعب الأوربى تأييده عقب انهيار سلطة الإمبراطور فى الغرب الأوربى، وبالتالى أصبحت القاسم المشترك الأعظم للقوى السياسية فى إيطاليا.

إلا أن ازدياد نفوذ البابوية واتساع أملاكها فى إيطاليا، وكون عاصمة اللمبارديين بافيا Pavia على مقربة من روما عاصمة البابوية؛ إضافة إلى سعى ملوك اللمبارديين للإنفراد بالسيادة المطلقة على كل إيطاليا، كل هذا أشعر البابوية أن اللمبارديين – رغم كونهم كاثوليك بعد أن كانوا وثنيين - لا يمكن الثقة فيهم أو الاعتماد عليهم، خوفاً من أن تصبح البابوية مجرد أسقفية لمبارديه، بدلاً من جعلها عاصمة الغرب الأوربى بأكمله والمهيمنه على مقدراته دينياً ودنيوياً.

ولقد رأت البابوية، بذكائها ومهارتها فى معالجة الشئون السياسية، أن من الحكمة عدم قطع صلتها تماما بالدولة البيزنطية، رغم إدراكها أنه ليس بوسعها الاعتماد عليها، مع تجاهل أن أباطرتها لأيقونيون هراطقة. فرغم الاختلافات الدينية والمذهبية بين البابوية والدولة البيزنطية، فقد حرصت على الارتباط بها، لعدم وجود قوة أخرى - آنذاك - ويمكن الاعتماد عليها فى

مواجهة الغزاة اللمبارديين. لذا، اضطر اتيين الثانى - فى أول الأمر - إلى طلب العون من قسطنطين الخامس[٩] Constantin V (٧٤١ – ٧٧٥م)

هذا عن البابوية، وإذا انتقلنا إلى الدولة البيزنطية، فقد شهد عهد قسطنطين الخامس سقوط أرخونية رافنا Ravenne ونشأة دولة البابوية. لكن الملاحظ أن العلاقات المتشابكة بين القوى الأربع: الدولة البيزنطية، مملكة اللمبارديين، بابوات روما ومملكة الفرنجة لم يرد ذكر تفصيلى لأحداثها فى المصادر البيزنطية إلا فى نصف صفحة فى مصنف ثيوفانس[١٠] .Theophanes هذا بينما المصادر الغربية عامرة بالتفصيل وبالتالى غطت - إلى حد ما - قصور المصادر البيزنطية، لكنها تعالج الموضوع من وجهة نظر أوربية غربية، وبالتالى ينبغى أن نستخلص منها سياسة قسطنطين الخامس الغربية وموقفه من تلك الأحداث الهامة.

لقد تقاتل البيزنطيون واللمبارديون خلال قرنين من الزمان من أجل السيطرة على إيطاليا، وانتهى المطاف بينهم بأن تمكنت البابوية من تقرير مصير شبه الجزيرة الإيطالية. فالبابا لم يكن فى أول الأمر إلا أسقف عادى لروما وتابع للإمبراطور البيزنطى، ولكنه تحول إلى زعيم أوربى حقيقى بسبب تطور الأحداث لصالحه وتدخله فى تسييرها؛ إذ نتج عن ذلك أن تلاشت تبعيته تدريجياً للإمبراطور البيزنطى، وازداد التلاشى عمقا بعد القطيعة الدينية بين روما وبيزنطة؛ كما ساهمت الحركة اللا أيقونية فى ازدياد القطيعة بين الشرق والغرب. فمن جراء العنف الذى سار عليه ليو الثالث الأيسورى Leo III (٧١٧ – ٧٤١م) وابنه قسطنطين الخامس (Constantin V) نفرت الكنيسة الكاثوليكية الغربية من الدولة البيزنطية وأباطرتها، وازدادت تقرباً من ملوك الغرب الأوربى وخاصة ملوك الفرنجة أكبر قوة أوربية آنذاك، لتستعين بهم لدفع شر الاضطهاد البيزنطى. لذا حين طالب قسطنطين الخامس بإعادة الأراضى البيزنطية المغتصبة فى إيطاليا، ردّ عليه ببين القصير أنه وهبها للسدة الرسولية حباً فى القديس بطرس كيما تغفر خطاياه. هكذا من هذا التباعد بين الإمبراطور البيزنطى والبابا، ومن هذا التقارب بين البابا وببين القصير، زرعت البذور الأولى التى أدت فيما بعد إلى انقسام الكنيسة شطرين شرقية وغربية[١١].

ومما جعل أباطرة بيزنطة لا يعيرون الشئون الإيطالية الاهتمام الواجب أن تحظى به، بل لم يهتموا بما آل إليه مصيرها، يرجع ذلك فى الأساس إلى مشاكلهم ومشاغلهم. فأمور الداخل آنذاك كانت أهم من أمور الخارج، خاصة إذا تعلق الأمر بكرسى العرش.

ولقد أرجع المؤرخ البيزنطى ثيوفانس Theophanes القطيعة الكاملة بين الدولة البيزنطية والغرب الأوربى إلى سنة ٧٢٦م، حين نشرت المراسيم الأولى للحركة اللاأيقونية فى عهد ليو الثالث الأيسورى(١٢) .

إزاء تلك الحركة الدينية، عارض بابوات روما بكافة السبل هرطقة الأباطرة البيزنطيين؛ إذ أصدروا قرار الحرمان ضد الأرخونية، كما حرضوا الشعوب الإيطالية على الثورة(١٣)، وشجعوهم للامتناع عن دفع الضرائب(١٤)، وأقاموا مجمعاً دينياً فى روما سنة ٧٣٠م أدانوا فيه الهراطقة اللاأيقونيين(١٥)، كما أدانوا بطريرك القسطنطينية لأنه من مؤيدى هذه الهرطقة(١٦). كل هذه الأمور العدائية أغضبت الإمبراطور البيزنطى حتى أنه أرسل إلى إيطاليا جيشاً وأسطولا لتهدئة الأمور فيها. إلا أن العواصف العاتية حالت دون وصولها إلى بحر الأدرياتيك(١٧).

ومع ذلك، فإن الأحداث أثبتت أن بابوات روما لم يتعجلوا على الإطلاق فى الانفصال عن الدولة البيزنطية، إذ اعتبروا أنفسهم على الدوام تابعين لها، ونواب عن الإمبراطور فى إيطاليا. وعندما شعروا أنهم سادة إيطاليا وأن سيادة الإمبراطور البيزنطى ليست إلا سيادة إسمية واهية، سعوا بأنفسهم إلى قمع الثورات، وحرصوا على الحفاظ على طاعة الشعب الإيطالى للأباطرة البيزنطيين(١٨) خوفاً من أن تؤول تلك السيادة لأعدائهم اللمبارديين.

أما اللمبارديون، فقد شكلوا خطراً على ممتلكات الأطراف الثلاثة بسبب سياستهم الرامية إلى وقوع إيطاليا كلها تحت سيادتهم وحوزتهم. فلقد أستولى اللمبارديون سنة ٥٦٨م بقيادة زعيمهم البوئين Alboin (٥٦١ – ٥٧٣م) على وسط إيطاليا وشمالها، بعد أن خاضوا عدة معارك مع الحاميات البيزنطية. أما مدينة روما Rome مع المناطق المجاورة لها، فقد بقيت خاضعة لسلطة البابا؛ بينما خضعت رافنا Ravenne تحت السيادة البيزنطية، وطوال ما يقرب من قرنين من الزمان، شهدت إيطاليا صراعاً بين اللمبارديين من جهة، والبيزنطيين من جهة ثانية، والبابوية من جهة ثالثة، كما تدخلت مملكة الفرنجة أيضاً فى هذا الصراع(١٩).

ولقد سار إيستولف Aistulf (٧٤٩ – ٧٥٦م) على سياسة لويتبراند Luitprand (٧١٢ – ٧٤٤م) الذى يعد أعظم الملوك اللمبارديين على الإطلاق، تلك السياسة القاضية إلى وقوع إيطاليا كلها تحت السيادة اللمباردية.

ونجح لويتبراند فى استغلال النزاع القائم بين الإمبراطور البيزنطى ليون الثالث الأيسورى والبابا جريجوار الثانى GrégoireII (٧١٥–٧٣١م) ليستولى على رافنا Ravenne وبولونيا Bologne وبنتابول Penta pole وكل الأراضى البيزنطية الواقعة شمال روما. إلا أنه بفضل تدخل البابوية ومساندة الجيش البندقى استعيدت رافنا من اللمبارديين(٢٠). لكن لويتبراند لم يركن إلى السكينة، ففى

سنة ٧٤١م تمكن من قطع كل اتصال قائم بين روما ورافنا بعد اجتياحه أربع قلاع - ألا وهى أمريا Ameria وبوليمرتيوم Polimartium وهورتا Horta وبليرا Blera – تتحكم فى الطريق المؤدى بينهما(٢١). وبوفاته سنة ٧٤٤م، إعتلى عرش اللمبارديين ثلاثة ملوك أهمهم إيستولف Aistulf الذى سار على خطاه فبدأ ينفذ مشاريعه التوسعية بغرض السيطرة على إيطاليا من أقصاها إلى أقصاها فانتهز فرصة إنشغال الإمبراطور قسطنطين الخامس بالمشاكل الداخلية والحركة اللاأيقونية والأخطار الخارجية المتمثلة فى حربه ضد البلغار والمسلمين، واستولى على كوماشيو Commacchio وفيرارا Ferara وفى يوليو سنة ٧٥١م، سقطت رافنا بفعل هجوم ضار شنه عليها، واتخذها عاصمة لمملكة اللمبارديين. وبذلك، فقدت الدولة البيزنطية نهائياً أملاكها فى شمال إيطاليا ووسطها(٢٢).

نتيجة لما تقدم، أصبح البابا فى موقف لا يحسد عليه ولا يقوى على مواجهة إيستولف، فهو على وشك إبتلاع كافة أراضيه حتى أن البابا أصبح على وشك الاختفاء من الساحة الإيطالية. فما كان منه أن هدد ملك اللمبارديين بتوقيع عقوبة الحرمان Excommunication، إلا أن إيستولف لم يحفل بتهديده. كما حول البابا استجداء تدخل الإمبراطور البيزنطى قسطنطين الخامس، وطلب منه إرسال جيش بيزنطى لإستعادة روما والأراضى الإيطالية الأخرى من الغزاة اللمبارديين. لكن هذا التهديد لم يفلح هو أيضاً فى جعل إيستولف يتنازل عن ما حققه من توسع إقليمى؛ وبالتالى لم يكن أمامه سوى الاستعانة بببين القصير ملك مملكة الفرنجة(٢٣).

وحدث آنذاك أن توفى البابا زكريا فى ١٥ مارس سنة ٧٥٢م. وفى نفس الشهر خلفه على السدة الرسولية إتيين الثانى Etienne II (٢٦ مارس ٧٥٢ - ٢٦إبريل ٧٥٧م)، فكان عليه مواجهة أطماع اللمبارديين المتزايدة. ألا أن الأمور إزدادت تفاقماً حين أقدم ملك اللمبارديين فى أوائل يونيو سنة ٧٥٢ على تهديد عاصمة البابوية روما(٢٤)، فما كان منه أن أنهى تهديده بإبرام اتفاقية سلام مع أتيين الثانى لمدة أربعين عاما. ورغم ذلك، وبعد مضى شهر على إبرامه تلك الاتفاقية، حاول ايستولف فرض جزية مقدارها صو Sou واحد من الذهب على جميع سكان دوقية روما. مما يؤكد نواياه فى أحكام سلطته على كافة اراضى البابوية(٢٥) Partes romanae

فى مواجهة تلك الأخطار، حاول إتيين الثانى التفاوض مع ملك اللمبارديين، عارضاً عليه الانسحاب من الأرضى التى احتلها. إلا أن مساعيه ذهبت سدى؛ فما كان من البابا أن لجأ إلى ببين القصير زعيم أوروبا القوى طالباً مساعدته ضد اللمبارديين. ففى رسالة حملها إليه أحد الحجاج؛ أخبره فيها عن رغبته فى

التشاور معه، وأبدى قلقه البالغ(٢٦). كما أوصاه أن يوفد إليه رجال ثقة لاصطحابه من روما إلى مملكة الفرنجة، لأن الطريق موبوءة باللمبارديين وغير آمنة. كما أنه يريد قبل الذهاب إلى ببين، أن يحصل على شئ يدل على مسئولية ببين تجاهه(٢٧).

فضلاً عن ذلك، فإن الإمبراطورية البيزنطية تأثرت تأثراً بالغاً بمجرى الأحداث المتعلقة بدوقية روما البيزنطية. فسقوط رافنا فى قبضة اللمبارديين كان له صداه البالغ فى بيزنطة، حتى أن قسطنطين الخامس كان يكتب خطاباً تلو الآخر إلى أتيين الثانى. فرافنا منذ عام ٥٦٨م عاصمة لأرخونية Exarchat بل وكل الأ ٔ راضى الإيطالية التى آنذاك تحت السيادة البيزنطية، إضافة إلى أنها كانت حتى ذلك الوقت على اتصال وعلاقات وثيقة ودائمة مع العاصمة البيزنطية القسطنطينية. لذا، حاول الإمبراطور البيزنطى قسطنطين الخامس جاهداً، إستعادتها بطرقه الدبلوماسية. ففى سنة ٧٥٢م، أوفد حنا Jean، أحد كبار موظفى القصر الإمبراطورى، وبصحبته بولس Paul شقيق البابا، ليتفاوضا مع إيستولف في بافيا Pavie العاصمة اللمبارديه. فقاما بتسليمه رسالة الإمبراطور. إلا أن مفاوضاتهما باءت بالفشل(٢٨). وفى غضون عام ٧٥٣م، عاد حنا من القسطنطينية، حاملاً إلى البابا أتيين أمرا موجهاً إلى إيستولف، يقضى برد المملتكات التى أغتصبها من أملاك البابوية. وبالفعل، وهو فى الطريق إلى ببين، مر على ملك اللمبارديين، لينقل إليه ما كلفه به الإمبراطور ولانعدام القوة البيزنطية الرادعة، إستخف إيستولف بالاعتراضات الدبلوماسية التى أبدتها بيزنطة، بل ورد عليها بزيادة تهديداته لروما وسكانها، كما عامل مبعوثى الإمبراطور معاملة سيئة(٢٩).

وقد أورد كتاب البابوات Liber Pontificalis أن البابا أتيين الثانى كان يدرك تماماً أن الإمبراطور البيزنطى قسطنطين الخامس لا يقوى على مساندته وإجبار اللمبارديين على الانسحاب من الأراضى البيزنطية المغتصبة فى الغرب الأوربى. إلا أنه رأى من الناحية الشكلية، ضرورة إرسال سفارة إلى الإمبراطور البيزنطى طالباً نجدته(٣٠)، ويقال إنه كان يفضل التدخل البيزنطى على التدخل الفرنجى وفق ما جاء فى سيرته الواردة فى كتاب البابوات(٣١)، ويبدو أن سبب ذلك أنه كان خاضعاً للسيادة البيزنطية الضعيفة، ويخشى من الفرنجة الأقوياء إذا حلّو مكانها.

وفى غضون عام ٧٥٣م أيضاً، وصل من مملكة الفرنجة السفيران المرتقبان، وكانا من كبار الشخصيات وثقة وفق طلب البابا الذى كان يخشى مكائد اللمبارديين: الأول، شرود جرج Chrodegarg أسقف متز Metz، والثانى الدوق أوجييه .Augier ومما لا شك فيه أنهما كلفا بطمأنة البابا، وإخباره أن العاهل

الفرنجى يكن له النوايا الحسنة. كما كان على المبعوثين اصطحاب البابا إتيين الثانى – حسب رغبته سالفة الذكر - إلى مملكة الفرنجة، حيث كان فى انتظاره لقاء ثم ترتيبه مسبقاً للقاء الملك ببين(٣٢). وبالفعل، اتخذ البابا طريقه من روما إلى مملكة الفرنجة فى ١٤ أكتوبر سنة ٧٥٣م بصحبة مبعوثى ببين القصير وبعض كبار رجال الإمبراطور البيزنطي، واتجه الجميع نحو شمال إيطاليا ومملكة الفرنجة(٣٣).

ولقد أدرك إتيين الثانى مدى أهمية المباحثات، لذا اصطحب معه بعض كبار شخصيات الإدارة البابوية، فعبروا جبال الألب فى شهر ديسمبر سنة ٧٥٣ فى طريقهم إلى مملكة الفرنجة، وكان الإمبراطور البيزنطى قسطنطين الخامس على علم بذلك(٣٤).

وفى الطريق، عانى الجميع من طول المسافة وشدة البرد. وأخيرا، فى ٦ يناير سنة ٧٥٤م، تم استقبال البابا فى القصر الملكى فى بونثيون Ponthion من قبل الملك الفرنجى ببين، والذى سبق له أن كلف ابنه شارلمان Charlemagne- وكان عمره آنذاك عشر سنوات تقريباً - بترأس بعثة الشرف التى ضمت أيضاً بعض كبار ورجال المملكة والتى ستصاحب البابا إلى القصر الملكى فى بونثيون(٣٥). أما ببين وزوجته برتراد Bertrade وابنه الثانى كارلومان Carloman وكبار رجال البلاط الفرنجى، فقد انتظروا البابا على بعد ثلاثة أميال من المدينة. وعندما علم ببين باقتراب البابا أتيين الثانى، أسرع للقائه بصحبة زوجته وإبنهما الثانى كارلومان. وحين مثل البابا أمامهم، ركع ببين ليعبر عن احترامه وتبجيله للجالس على الكرسى البابوى، ثم ترجل الملك الفرنجى من على صهوة جواده، وسار على قدميه بجوار جواد البابا ممسكاً بلجامه، وكان الجو شديد البرودة، والثلج يغطى الأرض. وأخيراً دخل الموكب فى احتفال مهيب القصر الملكى الفرنجى فى بنثيون(٣٦).

ولقد بدأت المفاوضات بين البابا وببين فى اليوم التالى مباشرة – أى فى السابع من يناير سنة ٧٥٤م - وحضر الاجتماع كبار رجال مملكة الفرنجة والأساقفة، وفيها شرح أتيين الثانى حالة البؤس التى تمر بها الكنيسة اللاتينية والدموع تنهمر من عينيه، وتوسل إلى زعيم أوروبا القوى أن يضع حداً لأعمال الابتزاز والتهديد التى يرتكبها إيستولف، وأن يضمن حماية كنيسة القديس بطرس ودولة الرومان - Res publica أى دولة البابوية فى روما – هذا بينما أقسم الملك الفرنجى أن يحقق كل مطالبه وأن يعيده إلى سالف مكانته من تبجيل واحترام، كما تعهد بإعادة المدن التى استولى عليها اللمبارديون؛ ألا وهى أرخونية رافنا Exarchat de Ravenne وبقية الممتلكات البابوية فى إيطاليا(٣٧). وتم إبرام أول اتفاقية بين إتيين الثانى وبين ببين القصير(٣٨).

وهكذا، سوف لا تعود الأراضى سالفة الذكر إلى صاحبتها الدولة البيزنطية وإمبراطورها اللاأيقونى هادم ومحطم الصور المقدسة قسطنطين الخامس، بل إلى بابا روما أتيين الثانى وكنيسة القديس بطرس.

هذا وقد أنعم البابا على ببين وأولاده بمرتبة «بطارقة الرومان»[٣٩] «Patricius Romanorum»، فى احتفال أقيم فى كنيسة سان دنيه يوم ٢٨ يوليو سنة ٧٥٤، أى أنهم أصبحوا من أشراف روما، والمدافعين عنها وعن إيطاليا الرومانية، كما مسحه هو والملكة برتراد وشارلمان وكارلومان بالزيت المقدس، وهدد الفرنجة بإنزال عقوبة الحرمان من جماعة المؤمنين Excommunication لكل من تسول له نفسه انتخاب ملك عليهم من غير أسرة ببين، أى الأسرة الكارولنجية[٤٠].

والجدير بالتسجيل هنا، أنه ليس من حق البابا ولا من صلاحياته منح لقب «بطريق الرومان»، بل يعد هذا من صلاحيات الإمبراطور البيزنطى، كما يعد أيضاً اغتصاباً لحق من حقوقه، لذا خشى ببين من حَمل لقب بطريق[٤١].

وبذلك جعل أتيين الثانى من تلك الأسرة، أسرة أقيمت باختيار إلهى لتحكم الشعب الفرنجى وأصبح ببين القصير - مغتصب عرش الأسرة الميروفنجية - ملكاً شرعياً على أسرة جديدة، كما أصبح من حقه التدخل فى شئون إيطاليا والدفاع عن البابوية وحمايتها هذا بينما جامل البابا، ببين القصير بإكسابه الشرعية بعد تتويجه ملكاً على الفرنجة. فكان خير سند للأسرة الكارولنجية الوليدة، كما عزز هذا التتويج المقدس أواصر التحالف بين ببين القصير والبابا أتيين الثانى، إذ أحدث بينهما نوعاً من القرابة الروحية، ودل - كما هو يعتقد آنذاك - أن الله والقديس بطرس يؤيدان ببين فى مملكته، ويحميانه من كل محاولة يمكن أن تحدث عن طريق الملوك الشرعيين أو من أحد أبناء كارلومان شقيق ببين القصير.

ومن جهة أخرى، فإن التحالف الفرنجى البابوى سيكون له نتائج بعيدة المدى، إذ بعد أقل من نصف قرن سيقوم البابا ليون الثالث Leon III بتتويج شارلمان بن ببين إمبراطوراً على الإمبراطورية الرومانية الغربية المقدسة، وذلك ليلة عيد الميلاد من سنة ٨٠٠ م[٤٢].

ومن الطريف أن رافنا لم تكن تابعة لبابا روما، بل كانت أراض خاضعة للسيادة البيزنطية، أى أن اللمبارديين حين استولوا عليها، فقد استولَوا على أراض بيزنطية، كذلك كان حال دوقية روما، التى كانت فى الواقع تحكم من قبل البَابا الخاضع للسيادة البيزنطية.

حينئذ، ليتخلص البابا أتيين الثانى من هذا المأزق قبل عودته إلى مملكة الفرنجة، كتب وثيقة مزيفة فى روما لتبرير مطالبه التوسعية عرفت باسم

«هبة قسطنطين» Constitutum Constantini Imperatoris وهى الهبة التى قيل إن الأمبراطور قسطنطين الكبير (٣٠٦- ٣٣٧ م) Constantin Le Grand منحها فى القرن الرابع للبابا سلفستر الأول Sylvestre I (٣١٤- ٣٣٥م) وخلفائه، لكى يحكموا بموجبها إيطاليا والغرب الأوربى بأكمله. لقد شاعت فى إيطاليا منذ أواخر القرن الخامس قصة تروى أن البابا سلفستر كان قد عالج الإمبراطور قسطنطين من مرض الجذام. وأن قسطنطين تخلى للبابا عن حكم إيطاليا والغرب اعترافاً منه بهذا الجميل، ومنحه التاج الإمبراطورى تعبيراً عن هذه السلطة، وأن قسطنطين اكتفى بحكم القطاع الشرقى من الإمبراطورية الرومانية، وأن البابا أعاد التاج للإمبراطور. وقد اعتمدت وثيقة هبة قسطنطين على هذه القصة، وصدرت على أنها المرسوم الذى أصدره قسطنطين بهذه المناسبة؛ ولذلك، فإن الوثيقة تثبت بطريقة شرعية - حسب أدعاء الكنيسة الكاثوليكية- حق البابا فى تتويج الأباطرة والملوك، لأن إعادة سلفستر للتاج على رأس الإمبراطور قسطنطين يعتبر تتويجاً له، وحقاً يستطيع البابا أن يمارسه فى أى وقت؛ وتثبت بالتالى خضوع السلطة الزمنية للسلطة الدينية، وبعبارة أخرى تثبت حق البابا فى تتويج الساسة كيفما شاء.

كما جاء فى تلك الوثيقة أيضاً أن قسطنطين وهب البابا سلفستر الأول قصر اللاتيران Latran وكنيسة القديس بطرس، وحق حمل التاج وشارات الإمبراطورية: الرداء الأرجوانى، والبزة الحمراء، والصولجان، وعصى القيادة. والحق فى أن يكون له فرسان يرافقونه، وحق تعيين قناصل. وأن احترام قسطنطين للقديس بطرس يجعله يقوم بوظيفة السائس حيال البابا سلفستر الأول، وذلك بأن يترجل ويقود مطية البابا. وهذا ما فعله ببين القصير حين استقبل البابا فى بونثيون.

ويقال إن وثيقة «هبة قسطنطين» تم تزويرها فى روما، لأن أسلوبها يطابق الأسلوب الذى كانت تكتب به الوثائق البابوية فى القرن الثامن الميلادى؛ وأنها حررت فى عهد البابا أتيين الثانى (٧٥٢- ٧٥٧م) للتأثير على ببين القصير لكى يحارب اللمبارديين فى إيطاليا ويسترد منهم الأملاك البابوية التى استولوا عليها، والتى تعتبر بموجب هذه الوثيقة حقاً شرعياً للبابا. ويقال أيضاً إن الوثيقة زورت - تحديداً – فى سنة ٧٥٣م، وأن الموثق كريستوفر Christophors هو الذى قام بتحريرها، وأن البابا إتيين الثانى قدم الوثيقة بنفسه إلى ببين القصر عندما سافر إلى بونثيون سنة ٧٥٤م. ويؤيد هذا الرأى أن الوثيقة ظهرت لأول مرة فى دير سان دينيه الذى قضى فيه البابا أتيين شتاء هذا العام(٤٣).

على أية حال، طلب الملك الفرنجى من إيستولف أن يضع حداً لعدائه مع البابا، ويعيد إليه أملاكه التى اغتصبها. لكن محاولته هذه باءت بالفشل. فما

كان من ببين أن جمع كبار رجال مملكته وذلك فى الأول من مارس سنة ٧٥٤م فى برنى - ريفيير Berny - Riviere إحدى دوائر سواسون Soissons وأعرب فى هذا الاجتماع عن عزمه لشن حرب فى إيطاليا ضد إيستولف لصالح البابا. فقوبل طلبه بمعارضة شديدة من قبل الحضور، وحجتهم فى ذلك أن التحالف الفرنجى اللمبارديين يعتبر تقليداً سياسياً؛ فضلاً عن ذلك، فقد دب الفزع من تلك الحملة بسبب كونها بعيدة. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، حاول ملك اللمبارديين مساندة المعارضين للحملة الموجهة ضده، إذ أقنع كارلومان Carloman شقيق ببين القصير على مغادرة دير مون - كاسان Mont- Cassin ليذهب خلال شهر مارس إلى مملكة الفرنجة، ويتوسل إلى شقيقه ألا يذهب فى حملة على إيطاليا، حى لا يكبدها أهوال الحرب والقتال. وكان طلبه هذا مثار دهشة وغضب جميع رجال الدين، كما أن ببين رفض الإنصياع لنصيحة شقيقه الذى أمره بمغادرة القصر، ثم ألقى القبض عليه وأجبره على دخول دير فيينا Vienne حيث ما لبث أن مات بعد قليل فى ١٧ أغسطس سنة ٧٥٤م، كما اضطر أولاده أن يعيشوا رهباناً هم أيضاً(٤٤).

رغم هذا الفشل، لم يركن ببين إلى السكينة، بل عقد مجلس الفرنجة الأعظم فى كيرسى - سيرواز Quiersy - sur - Oise وذلك فى ١٤ إبريل سنة ٧٥٤م يوم عيد القيامة. وفى هذه المرة نجح ببين فى إقناع الأدواق والكونتات بعزمه القاطع على قتال اللمبارديين حفاظاً على حقوق البابوية. فوافقه الجميع على مطلبه وأخذوا بفكرته. وأوضح تعهداته فى بونثيون حيث تعهد باتفاق باسمه وباسم ولديه إلى البابا أن يمنحه رافنا، ويؤمن له أملاك هذه الأرض مع دوقية روما(٤٥).

والملاحظ أن ببين حركته دوافع كثيرة ومختلفة لاتخاذ مثل هذا المسلك العدائى تجاه إيستولف. فملك اللمبارديين كان على استعداد لاستقبال ألد أعداء ببين ألا وهو شقيقه الثالث غير الشرعى جريفون Griffon وذلك سنة ٧٥٣م. وكان والده شارل مارتل قد ظلمه بأن أعطاه ميراثاً شريطاً ضيقاً من الأرض على حدود نستريا وأوسترازيا. وفى سنة ٧٤١م، أدخل أحد الأديرة ثم أطلق ببين سراحه. وبالفعل توجه جريفون فى طريقه إلى لمبارديا، إلا أنه لقى حتفه فى إحدى ممرات جبال الألب(٤٦).

عقب ذلك، ولإجلاء إيستولف عن الأراضى البابوية التى احتلها، أرسل ببين سفارتين للمثول أمامه؛ إضافة إلى رسالة من البابا إتيين الثانى. وقد استمرت تلك المفاوضات السلمية النشطة خلال صيف وخريف سنة ٧٥٤م، إلا أن تلك الجهود السلمية ذهبت سدى. فلم يبق أمام الملك الفرنجى إلا استخدام القوة المسلحة. وهكذا انطلقت الجيوش الفرنجية من أنحاء سواسون وذلك فى ربيع

سنة ٧٥٥م، فى اتجاه ليون وموريان Maurienne، حيث انضم إليهم ببين وبصحبته إتيين الثانى(٤٧). فازداد المقاتلون حماسة فى حربهم ضد اللمبارديين. وبعد إنذار أخير لا طائل منه، إجتاز الجيش الفرنجى جبال الألب عن طريق ممر جبل سينى Mont- Cenis، ثم أسرع فى التقدم إلى أن وصل إلى سوز(٤٨) Suse. فأحدث هرجاً ومرجاً فى مقدمة الجيش اللمباردى، فما كان من الجيش الفرنجى أن زحف فى أعقابه إلى أن وصل بافيا عاصمة مملكة اللمبارديين حيث حاصر إيستولف الذى أبدى صموداً ضعيفاً للغاية وبدا للجميع أنه قرر الصلح بسرعة حتى يتخلص من الغزاة الفرنجة.

هذا بينما يبدو أن ببين من جانبه كان سعيداً أكثر من اللازم بهذا الانتصار. ويرجع ذلك ربما إلى قصر النظر، أو ربما أيضاً بدافع من الحماسة الزائدة؛ إذا كان يعتقد أن الحرب إذا طالت ستؤثر على موقفه ومكانته فى مملكة الفرنجة، لذا، اكتفى بما تعهد به إيستولف بأن يعيد للبابا أرخونية رافنا، مع بقية أراضى المقاطعة التى كان قد غزاها، إضافة إلى نارنى Narni وسيكانو Ceccano الواقعتين على أطراف الدوقية، مع الاعتراف بالسيادة الفرنجية. بعد ذلك، إصطحب الملك الفرنجى البابا إتيين الثانى إلى روما، فدخلها مزهواً بالانتصار الذى أحرزه على عدوه إيستولف؛ ثم وواصل ببين القصير طريقه إلى مملكة الفرنجة وذلك فى أوائل صيف سنة ٧٥٥، فخوراً بإخضاع لمبارديا للسيادة الفرنجية(٤٩) لكن فرحته لم تكتمل حين علم وهو فى طريق عودته إلى مملكته بنبأ استشهاد صديق عمره ورفيق حياته القديس بونيفاس Boniface على أيدى بعض الفريزيين الوثنيين، فعزم على أن ينتقم له. ومما يذكر أن استشهاد بونيفاس يعد نصراً للمسيحية لوصولها آنذك إلى تلك الأصقاع النائية في أقصى شمال أوروبا، إذا نتج عن ذلك تنصير الفريزيين، واتخاذهم قبره مكاناً مقدساً.

أما الإمبراطورية البيزنطية، فلم تتنازل على الإطلاق عن الأراضى التى أصبح ببين يتصرف فيها على هواه بموجب حق الغزو. فالحكومة البيزنطية علمت بذلك مؤخراً، فما كان منها أن أرسلت فى ربيع سنة ٧٥٦م سفارة إلى ببين ضمت جورج والمبعوث القديم حنا، تطلب منه أن يتخلى عن رافنا والأرخونية. فرفض الملك الفرنجى المطلب البيزنطى رفضاً قاطعاً(٥٠). وهكذا فقدت بيزنطة تلك الأراضى إلى الأبد، بينما بدأت الحياة تدب فى دولة البابوية.

على أن ملك اللمبارديين المهزوم لم يكن ليحافظ على عهده إلا فى حالة وجود قوة ببين على مقربة منه. فقد استغل انسحاب الجيش الفرنجى من إيطاليا، وعودة ببين إلى عاصمته سواسون، ليتراجع عن الوفاء بما تعهد به، ويمتنع عن إرجاع أى مدينة إلى الكرسى البابوى ما عدا نارنى Narni الذى تجرأ واستردها ثانية من البابا. ولم يكتف بذلك، بل عهد إلى تشديد الحصار على

مدينة روما Rome ذاتها وذلك فى الأول من يناير سنة ٧٥٦م، واستمر الحصار لمدة ثلاثة أشهر، عانى منه أهلها الأمرين حتى أنهم اضطروا للاستسلام فى آخر الأمر وأدرك ببين آنذاك أن الأمر لا يحتمل الانتظار ولابد له من العودة ثانية إلى إيطاليا لإنقاذ روما، قرر ذلك فى مايو سنة ٧٥٦م. فاجتاز الجيش الفرنجى - كحال الحملة الأولى - ممر جبل سينى Mont- Cenis ثم ألحق الهزيمة بجيش اللمبارديين المتواجد فى مضيق سوز Pas De Suse وبذلك تمكن ببين من إحكام حصار إيستولف فى بافيا العاصمة اللمبارديه. وقد شاركت الجيش الفرنجى فى عملياته العسكرية سالفة الذكر كتائب بافارية أتت من الشمال بقيادة ابن خالته المدعو تاسيلون Tassilon دوق بافاريا Baviere وأخيراً، اضطر ملك اللمبارديين للاستسلام وطلب الصلح(٥١).

وكان من الطبيعى أن يملى ببين شروطه على إيستولف، إذ أكرهه على تجديد خضوعه له، وأن يستولى على ثلث خزائن لمبارديا الملكية، وأن يدفع لمملكة الفرنجة جزية سنوية، ويسلمه عدداً جديداً من الرهائن، ويعيد فى الحـــال الأراضى التى استولى عليها من أرخونية رافنا ونارنى. وقد ورد فى كتاب البابوات Liber pontificalis أن ببين نظم كل ذلك، ومنحه إلى القديس بطرس ببراءة مكتوبة، وكلف فولراد Fulrad رئيس دير القديس دينيه بالذهاب بشخصه لتسلم كل المدن والمقاطعات التى تعهد ملك اللمبارديين بالتنازل عنها فى العام الماضى وتسليم مفاتحيها – حسب الأصول التقليدية – إلى روما وخليفة القديس بطرس أى إتيين الثانى(٥٢). وهكذا كان على فولراد الذهاب بشخصه لتسلم المواضع وهى فى رافنا وفى كوماشيو Comacchio فى الأرخونية، وفى فورلمبوبولى Forlimpopoli سيسنا Cesena، ريمينى Rimini، بيزارو Pesaro، فانو Fano، سنيجاليا Senigallia، سان مارينو San Marino، منتيفلتر Montefeltro (فى أيامنا هذه سان ليو San Leo)، أوربينو Urbino، ييسى Iesis، وفى ثلاث أو أربع مواضع أخرى أو ضيع فى بنتابول Pentapole، وبذلك تسلم جوبيو Gubbio شمال أومبرى Ombrie، وعلى حدود دوقية روما وسابين Sabine، تسلم مدينة نارنى Narni الصغيرة التى سبق لإيستولف أن انتزعها فجأة من البابا(٥٣) كما سبق القول.

هكذا رضخ إيستولف للشروط المهينة المفروضة عليه، وسلم المدن والأراضى البابوبة إلى فولراد Fulrad الذى بدوره ردها إلى البابا، ووضعت مفاتحيها والوثيقة الرسمية للهبة التى عرفت فيما بعد بهبة ببين Donation de Pepin على مذبح القديس بطرس، دلالة على انتصار الكنيسة الكاثوليكية على أعدائها. وكونت الأراضى سالفة الذكر مع دوقية روما الدولة البابوية. وكانت تحت حماية ببين القصر وبذلك أصبح البابا إتيين الثانى صاحب الأراضى

البيزنطية الواقعة فى وسط إيطاليا بعد أن أصبح سيداً لدوقية وأرخونية رافنا. ولا شك فى أنه كان يعترف نظرياً بسيادة الإمبراطورية البيزنطية. وفى واقع الأمر بقيت أراضى البابا مستقلة، ولكنها لم تجد شكلاً قانونياً محدداً. ولذا يمكن اعتبار «الجمهورية الرومانية» «Republica Romanorum» أى «دولة البابوية» دولة فى حالة التكوين، والسلطة الوحيدة التى تسيطر عليها هى سلطة ببين القصير، الذى يراقب إلى حد ما سياستها الداخلية(٥٤).

ومن الطبيعى أن يكون وقع هذه الهزيمة الساحقة محزناً فى نفس إيستولف، إذ لقى مصرعه خلال رحلة صيد وذلك فى ديسمبر سنة ٧٥٦م بعد أن سقط قتيلاً من على ظهر جواده(٥٥).

على أية حال، بمصرع إيستولف فى ديسمبر سنة ٧٥٦م، حدث نزاع على عرش اللمبارديين بين رتشيس Ratchis شقيق إيستولف الذى خرج من دير مون - كاسان Mont- Cassin، وديزيدريوس Desiderius دوق توسكانيا Toscanie والمرشح من قبل فولراد Fulrad رئيس دير سان دينيه(٥٦) فما كان من البابا إتيين وببين القصير أن ساندا ديزيدريوس سياسياً وعسكرياً مقابل الالتزام بالاتفاقية التى أبرمها سلفه سنة ٧٥٤م وجددت سنة ٧٥٦م(٥٧)، كما تعهد للبابا فى حضور ممثل ببين فى إيطاليا أن يعيد إليه ما اغتصبه لويتبراند Lataran (٧١٢ - ٧٤٤م) من أراض وعلى وجه الخصوص فى أرخونية فاينزا: Faenza الواقعة غرب الأرخوَنية، إضافة إلى أنكونا Ancône وأومانا Umana و أوسيمو Osimo الواقعة جنوب شرق بنتابول .Pentapole وكان مصير رتشيس Ratchis العودة ثانية إلى الدير بناء على أوامر البابا إتيين الثانى(٥٨).

لكن لم يكد ديزيدريوس يتربع على عرش المملكة اللمباردية فى مارس سنة ٧٥٧م حتى نكث بالعهد، وامتنع عن تسليم المواضع التى تعهد بتسليمها للبابا، واكتفى فقط بتسليمه فاينزا Faenza وفيرارى Ferrare (٥٩).

وحدث آنذاك أن توفى البابا أتيين الثانى فى ٢٦ إبريل سنة ٧٥٧م فى قصر اللاتيران Latran، وخلفه على الكرسى البابوى بولس الأول Paul I (٧٥٧- ٧٦٧م)، الذى حاول - دون جدوى - استرداد بقية الأراضى التى وعد ديزيدريوس بتسليمها للبابوية ولم يكتف ديزيدريوس بالامتناع عن تسليم الأراضى للبابا بل سخر منه وهدده ثم فاوضه سنة ٧٥٨م وبرفقته مندوب الإمبراطور البيزنطى لاستعادة رافنا(٦٠). أما ببين فكان آنذاك يتمنى إقامة سلام فى إيطاليا، بسبب انشغاله فى إتمام قيام الحكم الفرنجى فى جنوب بلاد الغال، واسترداد جميع المدن التى كانت فى يد المسلمين فى سبتمانيا Septimanie، والتى زحف عليها ببين نفسه سنة ٧٥٩م(٦١). كما واجه مهمة بالغة الصعوبة حين قام بغزو

أقطانيا Aquitanie ، وبعدها تتابعت غزواته ، باستسلام تولوز Toulouse عاصمتها سنة ٧٦٧م(٦٢). كما حارب آنذاك السكسون(٦٣). إضافة إلى ما تقدم ، قوبل التدخل الفرنجى فى الشئون الإيطالية بمعارضة شديدة من قبل كبار رجال المملكة من النبلاء.

كل تلك المتغيرات ، جعلته يغير من سياسته الإيطالية ويجنح إلى السلم فى حرب لن يجنى ثمارها فى حالة النصر سوى بابا روما. لذا ، سعى سنة ٧٦٣ م ، على تهيئة جو لإبرام إتفاقية سلام بين الفرقاء ، ونتج عن إقناع البابا بولس الأول بتوقيعها ، إن تنازل عن مطالبه الإقليميه كما تنازل عن بسط سيادته على سبوليتو Spoléte وبنفنتو Bénévent

وهكذا أبرمت اتفاقية سنة ٧٦٣ م بين ملك اللمبارديين ديزيدريوس والبابا بولس الأول ، تقضى بالاحترام المتبادل بين الطرفين ، وإعادة الأمور إلى نصابها دون إحداث تعديلات مستجدة ، مع احتفاظ كل طرف بقوانينه الخاصة دون تدخل الطرف الأخر(٦٤).

ثم كان أن توفى ببين القصير فى ٢٤ سبتمبر سنة ٧٦٨م وهو فى الرابعة والخمسين من عمره ، بعد آخر حملة قام بها على اقطانيا ، إذ شعر وهو فى مدينة سانت Saintes بمرض الم به واقتراب أجله ، فقام بتوزيع مملكته كما فعل والده شارل مارتل ، إذ قسمها بين ولديه كارلومان Carloman وكان نصيبه المناطق الشرقية ألا وهى: بروفانس وسبتمانيا وبرجنديا والالزاس وأليمانى Alémanie. أما شارل العظيم أى شارلمان فكان نصيبه استرازيا Austrasie ونستريا Neustrie. فى حين قسمت اقطانيا بينهما(٦٥).

ختام القول ، كان ببين حكيماً فى سياسته إزاء إيطاليا المتصارع عليها من قبل القوى الثلاث: الدولة البيزنطية صاحبة السيادة ، واللمبارديون الطامعون فى الاستحواذ عليها من أقصاها إلى أقصاها والبابوية الساعية للحفاظ على نفوذها فى وسطها ، بعيداً عن أطماع اللمبارديين من ناحية ، والسيادة البيزنطية الواهية من ناحية أخرى. ولا مانع لدى بابوات روما من الهيمنة على إيطاليا بكاملها بل والغرب الأوربى والعالم أجمع كذلك لكثلكته.

وفى تتبعنا للكاسب والخاسر ، نلاحظ أن الكاسب الأكبر فى أول الأمر كان البابا إتيين الثانى ، الذى سخر جيش ببين القصير لصالحه فى معركتين سنتى ٧٥٤ و ٧٥٦م خرج منهما ظافراً ، وكانت اتفاقية السلام الثانية ، أنجح من الأولى ، بالنسبة للبابوية على وجه الخصوص ، بسبب اتساع الأراضى التى ستؤول إليها ، إذ أصبح البابا صاحب الأملاك البيزنطية فى وسط إيطاليا ، بعد تسلمه المدن البابوية وابتداع هبة قسطنطين المزيفة ، التى جعلت منه زعيماً دينياً ودنيوياً لدولة البابوية. وهكذا أصبح مهيمناً على مقدرات الغرب

الأوربى، ومسيراً لكثير من أحداثه طوال العصور الوسطى.

لكن بوّفاة ملك اللمبارديين إيستولف فى ديسمبر ٧٥٦م، تبدلت الأمور لصالح اللمبارديين، بعد امتناع خلفه ديزيدريوس، عن تنفيذ ما سبق أن تعهد به سلفه، إذ رفض تسليم البابا الأراضى المتفق عليها، بل اكتفى بتسليمه فاينزا وفيرارى. وبوفاة أتيين الثانى فى ٢٦ إبريل ٧٥٧م، أكره شقيقه وخلفه بولس الأول على التنازل عن مطالبه، بعد تدخل ببين ونجاحه فى إبرام اتفاقية بين المتخاصمين سنة ٧٦٣م، أضاعت الكثير من المكاسب هادفاً من ذلك أن يسود السلام ربوع إيطاليا غير المتفرغ لمشاكلها ولا تعنيه كثيراً آنذاك بسبب توسعاته الخارجية التى ستفضى إلى توسيع رقعة مملكة الفرنجة.

أما الكاسب الثانى، فكان ببين القصير، إذ حولته البابوية من «حاجب القصر» الملكى فى أوسترازيا إلى «ملك مملكة الفرنجة»، وبالتالى ساعدته على إسدال الستار على الأسرة الميروفنجية، وإقامة الأسرة الكارولنجية. وهكذا اغتصب العرش بمباركة البابوية، أى بطريقة شرعية خالصة، خاصة وأنها هددت معارضى ملوك تلك الأسرة الجديدة بالحرمان.

كما أن ببين كبح جماح مملكة اللمبارديين، فأصبحت لا تشكل لمملكته أى إزعاج، بل بعد إلحاق الهزيمة بها فى معركتين، فرض عليها مطالبه بموجب اتفاقية ٧٥٤م، إذ أضافها إلى مجموعة الأراضى الخاضعة للتاج الملكى، وفى الاتفاقية الثانية التى أبرمت سنة ٧٥٦م، نصت على أن يكون لببين ثلث خزائن مملكة لمبارديا، وأن يدفع ملك اللمبارديين إيستولف لببين جزية سنوية.

إضافة إلى ما تقدم، فإن البابوية تخلت عن السيادة البيزنطية التى لا تقوى على حمايتها، لتبدلها بسيادة مملكة الفرنجة، مما رفع من شأنها لتحتل المكانة الأولى فى الغرب الأوربى آنذاك؛ ونتج عن ذلك فيما بعد، قيام وحدة أوربية على مسرح التاريخ تحت مسمى «الإمبراطورية الرومانية الغربية المقدسة».

وإذا انتقلنا إلى اللمبارديين، فكانوا من كبار الخاسرين زمن إيستولف عقب هزيمتيه المتلاحقتين، وإن كان ديزيدريوس أوقف وخفف من حجم الخسائر، إلا أن عملاق أوربا شارلمان الذى ورث مملكة أبيه القوية، مسح من صفحة التاريخ ديزيدريوس ومملكة اللمبارديين بعد ضمها إلى رقعة إمبراطوريته الواسعة سنة ٧٧٤م.

وأخيراً، خسر البيزنطيون الجزء الأكبر من إيطاليا البيزنطية، إذ اقتصرت السيادة البيزنطية على كالابريا Calabre وأوترنت Otrante ونابولى Naples وجايتى Gaëte وضاعت هيبة الإمبراطور البيزنطى، بينما بزغ نجم ملك الفرنجة ببين، ومن بعده ابنه شارلمان الذى سيصبح إمبراطوراً على القسم الغربى من الامبراطورية الرومانية بعد أقل من نصف قرن.

الهوامش

(١) للتفاصيل أنظر:

Monod, G., Etudes Critiques sur les sources de L' Histoire Mérovingiennes, Paris, 1872, PP. 1-63.

حيث أعد العالم جابرييل مونو Gabriel Monod دراسة نقدية تحليلية مقارنة لأهم مصدرين عن الأسرة الميروفنجية فى القرن السادس: الأول جريجوار التورى Grégoire de Tours والثانى: ماريوس دافنش Marius d' Avenches أنظر أيضاً:

علية عبد السميع الجنزورى: جريجوار التورى وقيام دولة الفرنجة، القاهرة ١٩٨٨م، ص ٧٧– ١٢١.

(٢) Continaution de Frédégaire, P. 182.

(٣) Ibid, P. 182; Annales Regni Francorum, éd. Kurze, 1895, PP. 8-10;

Eginhard, Vita Karoli Magni, p.9; Liber Pontificalis, t.I, P. 433.

وللتفاصيل أنظر سيرة البابا زكريا فى كتاب البابوات Liber Pontificialis t.I, PP. 426- 439.

(٤) Liber Pontificialis, t.I, P. 444

(٥) Annales Regni Francorum, PP. 8-9; Continuation de Frédégaire, P. 182; Clausula De Unction Pippini, in M.G.H., SS. RER. Merov., I, P. 465-466.

(٦) Clausula De Unctione Pippini,in SS. Rer, Merov., I, P. 465; Annales Fuldenses, éd. Kurze, Hanover, 1891, P.6.

(٧) Annales Regni Francorum, PP. 8,10; Annales qui Dicunter Eginhard, PP. 9, 11; Cont. Fred; 33, P. 182

(٨) Pirenne, H; Mahomet Et Charlemagne, Paris, 1970, P.137; Mahomet And Charlemagne, London, 1958, P. 188.

(٩) La Monte, J.L., The World of The Middle Ages, NewYork, 1949, PP. 391-394; Baldwin, M.W., TheMediaeval Church, NewYork, 1935, PP, 46-58, 76-81.

(١٠) Theophanes, The Chronicle Of Theophanes Confessor, Ed. Cyril Mango and Robert Scott, Oxford, 1997, PP. 556-557; éd, Harry Turtledove, Pensylvania, 1982, PP. 94-95.

(١١) Vasiliev, A.A; Constantin I, Empereur Des Romains, Paris, 1902, PP. 60-61.

(١٢) Theophanes, éd Mango, P. 558; éd. Harry, P. 96.

(١٣) LE Liber Pontificalis, ed. L. Duchesne, Paris, 1955, t.I, 184- 185.

(١٤) Liber Pontificalis, t.I, 183.

(١٥) Liber Pontificalis, t.I, 192; Mansi, Amplissima Collection Conciliorum, 299.

(١٦) Theophanes, éd Mango, P. 563-564; éd. Harry, P.P 98-95.

(١٧) Longhis, T.G., Les Ambassades Byzantines en Occident, Athenes, 1980, P. 132.

(١٨) Liber Pontificalis, 184- 185, 187.

(١٩) Lot, F., The End of The Ancient World and The Beginning of The Middle Ages, London, 1931, P. 290; LA Fin du Monde Antique et le Commencement du Moyen Age, Paris, 1927, PP. 355-356; Halphen, L., Etude Sur L'Administration De Rome au Moyen Age 757-1282, Paris, 1907, pp. 11-15, 20,40.

(٢٠) Monumenta Germaniae Historica, Epistolae, t.III, P. 702

(٢١) Codex Carolinus, in M.G. EP. t. III, P. 447.

(٢٢) Liber Pontificalis, t.I, PP. CCXXIV-CCXXV,M.1P. 442. CF. Diehl, CH., Etudes sur L'Administration Byzantine dans L'exarchat de Ravenne, Paris, 1888, P. 220; Ostrogorsky, G. Histoire de L'état Byzantine, trad. J. Gouillard, Paris, 1977, P. 199; History of the Byzantin State, trad, j. Hussey, Oxford, 1968, P. 170; Deanesly, M,A History of Early Medieval Europ London, 1956; P. 292; Brehier, L' Vie et Mort de Byzance, Paris, 1969, P. 82; Halphen, L; Charlemagne et L'empire Carolingien, Paris, 1968, P. 31.

(٢٣) Liber Pontificalis, t.I, P. 442.

(٢٤) Liber Pontificalis, t.I, P. 230.

(٢٥) Codex Carolinus t. III, P. 479- 480.

(٢٦) Clausula de Unctione Pippini, in M.G.Hss. Rer, Merov., 465-466.

(٢٧) Codex Carolinus t. III, P481- 482;. Liber Pontificalis, t.I, P. 444.

(٢٨) Liber Pontificalis, t.I, P. 443. CF. Ganshof, Histoire du Moyen Age, Paris, 1940, t.I, P. 408.

(٢٩) Liber Pontificalis, t.I, P. 442.

(٣٠) Liber Pontificalis, t.I, P. 442. cf, Lombard, Constantin V, P,65.

(٣١) Liber Pontificalis, t.I, P. 443.

(٣٢) Liber Pontificalis, t.I, P. 445.

(٣٣) Liber Pontificalis, t.I, P. 445. cf. Halphen, p. 32. Lounghis, Les Ambassades, P. 134.

(٣٤) Hubert, J., Etude sur La Formation des Etats de L'eglise, Paris, 1952, P. 251; Kleinclausz, A., Charlemagne, Paris, 1934, P.2., Diehl, Op. Cit, P. 218, Lombard, p. 70.

(٣٥) Liber Pontificalis, t.I, P. 447-448; Continuateurs de Frédégaire, 36, P. 183; Clausula de Unctione Pippini, PP. 465-466.

(٣٦) Liber Pontificalis, t.I, P. 448.

(٣٧) Annales Mettenses Priores, éd. B. Von Simson, Hanover, 1905, in M.G.H. SS. Rer Germ., Année 753, V, P. XI; Liber Pontificalis t.I, P. 448; cf. ganshof, t.I, P. 409.

(٣٨) Liber Pontificalis, t.I, P. 448. cf. Lombard, P. 72.

(٣٩) لقب بطريق (Patrice) من ألقاب الشرف الرفيعة، لم يكن لحاملة وظيفة معينة، أنعم به أباطرة الإمبراطورية على زعماء البرابرة مثل أدواكر Odoacre وثيودوريك Théodoric. وفى القرن الخامس الميلادى حاول ثيودوسيوس الثانى وزينون قصر استخدام هذا اللقب، لكن جستنيان الكبير أرجعه إلى سابق عهده أنظر:

Bréhier, Les Institutions De L'empire Byzantin, Paris, 1949, PP. 102- 103; Bury, The Imperial Administrative System. London, 1911, PP. 20- 36, 121- 124.

(٤٠) Liber Pontificalis, t.I, P. 448; Annales Regni Francorum, Année 754, P. 12; Chronique de Moissac, P. 293; Codex Carolinus, Lettre 7, in Epistolae, t.III, P.493; Clausula de Unctione Pippine, PP. 456-466; Fredegarii Chronicorum Liber Quartus Cum Continuationibus, C.33, p. 102.

(٤١) Liber Pontificalis, t.I, P. 449; Annales Regni Francorum, e d. Kurze, P.12.

(٤٢) حسنين محمد ربيع: دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ـ القاهرة ١٩٩٣م - ص ١٢١.

(٤٣) Ganshof, T.I, P. 409, Halphen, Pp. 35- Loughis, Pp. 136 - 138.

وقد أنكر رهبان دير سابين Sabine فى أوائل القرن الثانى عشر الميلادى صحة وصدق هبة قسطنطين. أنظر: جيبون: اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية ـ القاهرة ١٩٦٩ ـ جـ٢، ص ٥٧٧ وعن

معارضيها انظر: ص ٥٧٧– ٥٧٨.

(٤٤) Liber Pontificalis, t.I, P. 449; Annales Regni Francorum, Année 755 éd. Kurze, P.12. Fredegaire, C. 37, P. 105.

(٤٥) Liber Pontificalis, t.I, P. 449; Annales Regni Francorum, P. 11.

(٤٦) Frédegaire, C. 35, P. 103.

(٤٧) Liber Pontificalis, t.I, P. 452- 453; Annales Regni Francorum, P.12; Fredegaire, C. 37, P. 105.

(٤٨) Fredegaire, C. 37, P. 105.

(٤٩) Fredegaire, C. 37, P. 105-106.

(٥٠) Fredegaire, C. 38, P.P 107; Liber Pontificalis, t.I, PP 452-453.

وقد أدرجت فى حولية بتافيانى تحت أحداث سنة ٧٥٤م. أنظر:

Annales Petaviani, éd. Pertz, Année 754, P. 11

أنظر أيضاً:

Annales Fuldensis, ED. Kurze, 1891, p. 6.

(٥١) Fredegaire, C. 38, P.P 107-108; Codex Carolinus t. III, P. 493.

(٥٢) Codex Carolinus t. III, P. 492-493.

(٥٣) Liber Pontificalis, t.I, P. 452-454; Annales Regni Francorum, éd. Kurze, P.12; Annales Marbacenses qui Dicuntur, éd. Hermanus Bloch, Hanover, 1907, P.6.

(٥٤) Vasiliev, t.I, P. 461; Kleinclausz, P.II; Amann, t.V1, P. 18; Ganshof, t.I, P. 412-413.

(٥٥) Fredegaire, C. 39, P.P 108-109; Liber Pontificalis, éd. Kurze. Hanover, 1895, Année 756, P. 14. Annales qui Dicuntur Einhardi, Année 756, P. 15; Reginonis Abbatis Prumiensis Chronicon Cum Continuatione Treverrensi, éd. Kurze, Hanover, 1890, PP. 45-46.

والملاحظ أن الحولية الأخيرة أدرجت وفاة إيستولف تحت أحداث سنة ٧٥٥م بدلاً من ٧٥٦م كما وردت فى الحوليات الأخرى.

(٥٦) Liber Pontificalis, t.I, P. 453-454.

(٥٧) Liber Pontificalis, t.I, P. 455.

(٥٨) Codex Carolinus t. III, Epistolae, P. 506.

وكانت «البنتابول» تمتد على طول ساحل الادرياتيك من الابنين. أنظر: جيبون: اضمحلال الامبراطورية الرومانية، جـ٢، ص ٥٧٤. أما «رتشيس» Ratchis، فكان دوقاً على فريول Frioul سنة ٧٣٧م، ثم ملكاً على اللمبارديين سنة ٧٤٤م. وفى سنة ٧٤٩، تنازل عن العرش لصالح شقيقه إيستولف ليدخل دير مون كاسان .Mont Cassin وبوفاة شقيقه سنة ٧٥٦، خرج من الدير ليعتلى عرش اللمبارديين ثانية، وليقاتل ببين ويستعيد أملاكه التى تقلصت. انظر:

Bouillet, M M., Dictionnaire Universel D'Histoire et de Géographie, Paris, 1871, P. 1585

(٥٩) Liber Pontificalis, t.I, P. 455.

(٦٠) Liber Pontificalis, t.I, Pp. 455-457.

(٦١) للتفاصيل عن حملاته على سبتمانيا أنظر:

Annales Moissiac, in R.H.G., F; T. V, P. 68-69.

(٦٢) للتفاصيل عن غزوتيه لاقطانيا أنظر:

Fredegaire, PP. 112-120. Annales Marbacenses, P. 7; Annales Fuldenses, P. 7; Eginhardi Annales: de Gestis Caroli Magni, in R.H.G.F., t V, PP. 199-200; Annales Regni Francorum éd. Kurze, P. 27.

(٦٣) للتفاصيل عن حرب السكسون أنظر:

Annales Regni Francorum éd. Kurze, P. 17; Reginonis, P. 44.

(٦٤) Liber Pontificalis, t.I, Pp. 455-457; Codex Carolinus t. III, Pp. 506, 512, 520.

(٦٥) للتفاصيل أنظر:

Annales Regni Francorum éd. Kurze, P. 29; Eginhard, P.15; Annales Fuldenses. P.8.